ابن خلدون ومنهج التجديد لديه

الأستاذ علي بونوة جامعة غرداية

الملخص

في هذه السطور القلائل نعرج على بحر ليس له ضفاف ولا تحده سواحل، إنه العلامة ابن خلدون الباحث عن الحقيقة، ممحص الأحداث والوقائع، فتفرد بمنهج أصيل لم يسبقه إليه أحد، فصار بحق مدخلا منهجيا للتاريخ، فلم يكن المتفرج على محن أمة تكالبت عليها الأدواء والكوارث، بل كان صاحب النظر في ذلك، فكان بذلك فقيها وحكيما ومؤرخا ومتكلما اجتماعيا، حيث بينا في هذه العجالة بعض قواعد هذا المنهج الفذ المتفرد، لكن قبل ذلك وضحنا رأيه في منهج الأولين في كتابة التاريخ من عدم رضاه على طريقتهم البدائية في النظر إلى أحداث التاريخ، بالإضافة إلى النفعية التي اعترت روايتهم تزلفا وتقربا حينا من الأمراء، وحينا آخر بغاية الشهرة وذياع الصيت، في حين كان ابن خلدون حريصا من جانبه كل الحرص على السببية الموضوعية في استقاء الأحداث التاريخية، ومن قواعد منهجه الجديد قاعدة الشك والتمحيص، حيث يذهب إلى وجود التمحيص في ما يحيط بالروايات من أغلاط وتزييف حيث يرى أن الطريق الصحيح للتمييز بين الممكن والمستحيل من الأخبار هو مشاهدة الكائنات الخارجية والتعرف على وقائعها، وكذا قاعدة التشخيص المادي للظاهرة حيث يقتضي ذلك عنده النظر إلى الحقائق الاجتماعية ومحاولة الكشف عما يعرض لها لذاتها ووفق طبيعتها، ثم تحكيم أصول العادة وطبيعة العمران حيث يشير إلى أن كل حادث من الحوادث ذاتًا كان أو فعلا لابد له من طبيعة تخصه في ذاته وفيما يعرض له من أحواله القياس بالشاهد وبالغائب وهو القياس بالتمثيل أي القياس بالغائب على الشاهد ذلك الغائب الذي تتكون منه الوقائع التاريخية التي حدثت في الماضي.

Summary

In these few lines we speak of Ibn Khaldun, the seeker of truth, an examiner of events and facts, He is unique in his original method, which was not preceded by anyone, He became a methodological input To the study of history, He was not the spectator of the fate of his nation, who encountered disasters, but contemplated him, he was a wise person and a historian and a social lecturer, We discussed in These lines some of the rules of this unique approach, but before that we have explained his approach to the approach of those who preceded him in the history of writing, We note that he is not satisfied with Their primitive way of seeing the events of history, In addition to the utilitarian nature of their historical novels, they approach one of the princes, and sometimes for fame and reputation, while Ibn Khaldun was eager to Causal Objective Disclosure In the extraction of historical events. One of the bases of his new method is the rule of suspicion and examination, where he goes to the examination of what surrounds the novels of falsification or error, The case where he believes that the right way to distinguish possible and impossible news is to see external objects and to identify their facts. In addition to the basis of the physical diagnosis of the phenomenon where one has to take into account the social facts and the Attempt to detect its nature, Then the rule of habitual urbanization arbitration and the nature of urbanization, which indicates that each incident of the same nature or was really of his interest, And the measure of the witness, Any measure absent from the witness that the absence of historical facts that have been made in the past.

مقدمة

ينتقد ابن خلدون جمهرة المؤرخين الذين سبقوه، قبل أن يعرض لنا منهجه، لكن نقده لم يكن نقدا سلبيا (مرادفا للذم و الثلب)، فكان موقفه من إنتاج أسلافه موقف ممحص باحث عن الحقيقة لا الشهرة، فقد كان همه الوحيد التصحيح والتنقيح مما يكون قد أحدث انقطاعا جذريا تجاه تقليد الماضي والحاضر (عبد الغني،2006، 55).

فموقفه موقف ذو أهمية كبرى وهو ما يمكن أن نسميه رفض"التبعية الثقافية" حيث يقول :" ... ومنها توهم الصدق وهو كثير، وإنما يجيء في الأكثر من جهة الثقة بالناقلين"(المقدمة 58).

حيث يصف ابن خلدون منهجه بعبارة "النحو الغريب"، على غير ما ذهب إليه سابقوه، مبيناً ذلك بقوله:" ولحقت بأحياء أولاد عريف ... وأنزلوني بأهلي في قلعة أولاد سلامة... فأقمت بها أربعة أعوام متخلياً عن الشواغل، وشرعت في تأليف هذا الكتاب وأنا مقيم بها، وأكملت المقدمة على ذلك النحو الغريب الذي اهتديت إليه في تلك الخلوة، فسالت فيها شآبيب الكلام والمعاني على الفكر حتى امتخضت زبدتها، وتألفت نتائجها" (ابن خلدون ، 2001،344-345.)

وبانقطاعه ذاك أنتج مدخلاً منهجياً للتاريخ، بمؤلفه المسمى (العبر) ومقدمته الشهيرة، متزوداً بما نال من علوم، ومن تجارب سياسية وعملية في كتابته، والتي ظهر فيها معايشة وتفاعل ابن خلدون مع بيئته الخاصة، التي لم تخلُ من محن وكوارث لحقت بالعالم الإسلامي.

لم يكن فقيها وحكيما ومؤرخا فحسب، بل كان أيضا متكلما اجتماعيا، ذلك لأن تكلم في الذات والوجود الاجتماعيين، والكائنات الاجتماعية، وتطرق إلى العلل والأسباب، والبدايات والتحولات والنهايات، والأمور الطبيعية التي لا تتبدل(الساعاتي،2006، 109).

فأنشأ علما جديدا كان فيه نسيج وحده، لم يسبقه أحد، لا من مفكري الشرق ولا من مفكري الغرب، على اختلاف دراساتهم واجتهاداتهم الأصلية في شتى ميادين العلوم، وقد أطلق ابن خلدون على علمه الجديد اسم العمران، مركزا فيه على الاجتماع الإنساني وما يعرض فيه من العوارض الذاتية الخاصة بطبيعته وأحواله (الساعاتي،2006، 26).

لذا يمك أن نعرض بعضا من رأيه في منهج الأولين في كتابتهم التاريخ، وما دعاه إلى الاعتراض عليه، ثم إلى جوانب التجديد التي دعا إليها (قواعد المنهج الخلدوني)

رأي ابن خلدون في منهج الأولين في كتابة التاريخ

لم يكن ابن خلدون راضيا عن الطريقة المستعملة في كتابة التاريخ، بقوله" أما بعد فإن من التاريخ من الفنون التي تتداولها الأمم والأجيال ،وتشد إليه الركائب والرحال، وتسمو إلى معرفته السوقة والأغفال، وتتنافس فيه الملوك والأقيال، ويتساوى في فهمه العلماء والجهال".(المقدمة ،2).

وعدم الرضا هذا راجع إلى أنه يرى أن هذه الطريقة بدائية جدا، ومن جهة ثانية فلقد كان هذا التاريخ ينطوي على أغلاط فاحشة، (ويمكن فهم كل هذه الأمور إذا ما علمنا أن هذه المادة–التاريخ– تكون متداولة

ومستخدمة لغاية نفعية وذرائعية)، فلقد كانت تستعمل إما لإعلاء شأن الملك، وإما لتسلية الجماهير (عبد الغني، 2006، 58).

حيث يقول ابن خلدون "تطرف بها الأندية إذا غصها الاحتفال"، ومثل هذه الغائية لم تكن بطبيعة الحال لتتيح للتاريخ أن يصل إلى مرتبة العلم.

وقد ميز ابن خلدون في نقده بين فئتين من المؤرخين: فئة الذين جمعوا أخبار الأيام وسطروها في صفحات الدفاتر (فحول المؤرخين)، وفئة المؤرخين "الذين ذهبوا بفضل الشهرة والأمانة المعتبرة"، على حد تعبيره، غير أن ثمة ما يدعونا إلى الانتباه إلى أن مثل هذه الأمانة ليست سوى أمانة نسبية (عبد الغني، 2006، 58).

وكتب ابن خلدون بخصوص الفئة الأولى من المؤرخين ما يلي:"هذا وقد دون الناس من الأخبار وأكثروا، وجمعوا تواريخ الأمم في العالم" (المقدمة ص 03). ثم لم يأت من بعد هؤلاء" إلا مقلد وبليد الطبع والعقل" (المقدمة ص 04).

على أنه وجد في القصص التاريخية وقائع تناقض تلك التي اعتبرها أبدية محتومة فلم يتردد في رفضها واعتبارها أغلاطا ارتكبها الكتاب وبدت له عندئذ ضرورة إجراء تغيير كبير في طريقة درس التاريخ وكتابته (طه،1925، 35).

فمثلا: روض القرطاس كتاب ذو طابع تاريخي رسمي يروي لنا بطريقة جافة رتيبة الأحداث التي جرت في المغرب منذ أن اعتنق سكان المغرب العربي الكبير الإسلام دينا إلى سنة 1326 م ويشمل هذا الكتاب على عنوان فرعي معبر (الخبر عن ملوك المغرب من الأدارسة الحسينيين وذكر قيامهم وبنيانهم مدينة فاس دار ملكهم وقرار سلطانهم ﷺ) (عبد الغني،2006، 58).

فرأى لأجل أن يكون التاريخ صحيحا وكذلك لأجل أن يحسن فهمه، وجوب وضع طريقة أكيدة لتحقيق الوقائع التاريخية وعرض القوانين التي تعمل طبقها النظم الاجتماعية بشكل واضح، ومنهجه كما شرحه هو بنفسه في مقدمته: "إذ هو (التاريخ) في مظاهره لا يزيد على إخبار عن الأيام والدول، وفي باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، فهو لذلك أصيل في الحكمة وعريق وجدير بأن يعد في علومها وخليق"(المقدمة،3).

وابن خلدون يذكر اسم ابن أبي الزرع موضحا أنه من فاس، ومهما يكن من أمر فإن هذا الكتاب يشكل نموذجا – للتاريخ- الجرد- أو (الحوليات التاريخ)، ولا ينطوي الكتاب على التسلسل الزماني للظواهر فحسب، ولكنه يشتمل كذلك على ذكر السنة والشهر واليوم وحتى الساعة.

ويتضمن الكتاب أيضا صيغا تبريرية قبل الصفة التالية (الخبر عن دولة ملك الزمان وسراج الأوان الإمام السعيد والخليفة الرشيد أمير المسلمين أبي سعيد رحمه الله)، فثلث الكتاب أي ما يزيد على مائة وخمسين صفحة مخصص لتمجيد وتعظيم الدولة المرينية حتى إننا نجد فيه إحصاء لعدد الحوانيت والحمامات في الدولة.

ويمكن أن نشير في هذا الصدد إلى أن "الحوليات التاريخية" لم يعن بها فقط العرب والمسلمون وحدهم، ولكنها قد نمت وازدهرت كذلك في الغرب ونذكر بـ (حوليات) "جان فرواسار Jean Froissard" الممتد من

1369 إلى 1410 وإلى كتاب (مآثر وحسن سلوك الملك شارل الخامس) "لـ:كرستين دي بيزان Christine de pisan" (عبد الغني،2006، 60).

و قد لخص ابن خلدون تلخيصا جيدا كل ما يميز مثل هذه المؤلفات بقوله "فيذكرون: – يقصد المؤرخين– اسمه ونسبه، وأباه وأمه، ونساءه، ولقبه، وخاتمه، وقاضيه وحاجبه ووزيره..." (المقدمة، 51).

وإن مثل هذه النظرة إلى التاريخ لا تجدي نفعا، على الإطلاق لإدراك الأمور ، إذ هي خالية من أي مدلول، وذلك لأنها عديمة الفحوى، مسرد حياة رجل تقي ورع أو سرد حياة أمير، لا تهم ولا يمكن أن تهم إلا الدين، أو الأسرة الملكية المعنية (عبد الغني،2006، 60).

ويشير ابن خلدون إلى الفئة الثانية من المؤرخين مؤكدا أنها تتكون على حد تعبيره أقلية قليلة إذ يقول: " هم قليلون لا يكادون يجاوزون عدد الأنامل" (المقدمة، 3).

وهؤلاء هم الطبري، ابن إسحاق، الواقدي، الأسدي، ابن الكلبي، والمسعودي، وكلهم مؤرخو الفترة التي تمتد من القرن الثامن إلى القرن العاشر، وأشهرهم بلا مراء المسعودي مؤلف (مروج الذهب)، والطبري صاحب (أخبار الرسل والملوك).

ويقر ابن خلدون بأن هؤلاء المرخين "من المشاهير المتميزين عن الجماهير"، غير أن مؤلفاتهم لا ترضي رغبته إلا إرضاء جزئيا، فهو يجد في كتبهم من الطعن والمغمز، الشيء الكثير (عبد الغني، 2006، 61).

وقد ترك لنا بعض هؤلاء المؤرخين، تاريخا عاما شاملا يتضمن كل ما يختص بالعالم العربي الإسلامي، في حين أن البعض الآخر، اكتفى بوصف محيط معين، يحده الزمان والمكان، وقبل تصديه — ابن خلدون– لنقد هؤلاء المؤرخين، فإنه يحاول أولا أن يقر بما قدمت كتبهم من مساهمة إيجابية سواء أكانت هذه الكتب وافية شاملة أم كانت مقيدة من حيث الموضوعات، ومن هؤلاء المؤرخين على سبيل الذكر لا الحصر: ابن قتيبة، اليعقوبي، الدينوي، ... (عبد الغني، 2006، 63).

فالطبري مثلا وقف عند مشاهدته الخاصة، واكتفى بالنقل عن الرواة نقلا أمينا، دون أن يشك في روايتهم وأخبارهم، ويقول شارحا منهجه في التاريخ، "وليعلم الناظر في كتابنا هذا أن اعتمادي في كل ما أحضرت ذكره فيه، والآثار التي أنا مسندها إلى رواتها فيه، دون ما أدرك بحجج العقول وأستنبط بفكر النفوس إلا اليسير القليل منه، إذا كان العلم بما كان من أخبار الماضين وما هو كائن من أنباء الحادثين غير واصل إلى من لم يشاهدهم ولم يدرك زمانهم، إلا بأخبار المخبرين ونقل الناقلين، دون الاستخراج بالعقول والاستنباط بفكر النفوس فمهما يكن في كتابي هذا من حبر ذكرناه عن بعض الماضين، مما يستنكره قارئه أو يستشنعه من اجل أنه لم يعرف له وجها في الصحة، ولا معنى في الحقيقة، فل يعلم أنه لم يؤت في ذلك من قبلنا، وإنما من قبل بعض ناقليه إلينا، وإنا إنما أدينا ذلك على نحو ما أدي إلينا"، حقا إنه لفضل كبير أن ينقل المؤرخ الأخبار بأمانة ويؤديه على النحو الذي أديت إليه به، ولكن الفضل الأكبر يكمن في بذل الجهد لتمحيص الأخبار وتمييز صدقها من كذبها(الساعاتي، 2006، 68).

وقد ذهب المقريزي هو الآخر إلى نفس ما ذهب إليه الطبري في نقله عن السابقين في مقدمة كتابه: المواعظ والاعتبار، بقوله:"... وأما أي أنحاء التعاليم قصدت في هذا الكتاب، فإني سلكت فيه ثلاثة أنحاء، وهي النقل من الكتب المصنفة في العلوم، والرواية عمن أدركت من شيخة العلم وجلة الناس، والمشاهدة لما عاينته ورأيته، فأما النقل من دواوين العلماء التي صنفوها في أنواع العلوم، فإني أعزو كل نقل إلى الكاتب الذي نقلته منه لأخلص من عهدته، وأبرأ من جريرته، .... وأما ما شاهدته فإني أرجو أن أكون، ولله الحمد، غير متهم ولا ضنين"(الساعاتي، 2006، 69).

وأما المسعودي فقد ارتقى درجة عن الطبري، لأنه وقف ممن سبقوه موقف الناقد، فأثنى على ابن قتيبة والطبري ونفطويه، لغزارة مادتهم وتنوع الأخبار التي حوتها كتبهم، ونقد سنان بن ثابت بن قرة الجرجاني، لأنه انتحل ما ليس من صناعته، وانتهج ما ليس من طريقته، وهو يقول في ذلك:"ولم نذكر من كتب التواريخ والأخبار والسير والآثار إلا ما اشتهر مصنفوها وعرف مؤلفوها"، وعلى الرغم من ذلك، فقد وقع المسعودي في أخطاء كثيرة، لأن ثقته ببعض المؤرخين جعلته ينقل عنهم الأخبار غثَّها وسمينها، وما كان منها مستحيل الوقوع، وبذلك استحق نقد ابن خلدون اللاذع في أكثر من موضوع في مقدمته(الساعاتي، 2006، 68-69).

وابن خلدون كان حريصا من جانبه كل الحرص على السببية الموضوعية في استقاء الأحداث التاريخية، وكان بالتالي حريصا على البحث عن معلومات صحيحة، وإذا كان منهج العرض الذي نهجه المؤرخون مطابقا للعقل، وإذا ما عثرنا على بعض المعلومات ذات الأهمية الكبرى، فإن هناك، لسوء الحظ معلومات أخرى غير مرضية، يقول ابن خلدون:" في كتب المسعودي و الواقدي من المطعن والمغمز ما هو معروف عند الإثبات ومشهور بين الحفظة الثقات، إلا أن الكافة اختصتهم بقبول أخبارهم، واقتفاء سننهم في التصنيف وإتباع آثارهم..." (المقدمة، 3-4).

ويوضح ابن خلدون فكرته مضيفا إلى ما تقدم أن تصانيف أسلافه التاريخية المميزة كانت تنطوي على أخطاء، فيقول: "وخلطها المتطفلون بدسائس من الباطل وهموا فيها أو ابتدعوها وزخارف من الروايات المضعفة لفقوها ووضعوها" (المقدمة، 3).

فموقف ابن خلدون من أسلافه جلي واضح والحقيقة أنه لم ينقد تآليفهم، ولكنه نقد النُسَّاخ الذين كلفوا بنقل تصانيفهم (عبد الغني، 2006، 64).

ومهما يكن من أمر فإن ابن خلدون يبدي تجاه متقدميه انتقادات ويبين أسباب الأخطاء، وهي أسباب سبعة تتمثل في: – التعصب للآراء والمذاهب، والثقة بالناقلين، والجهل بتطبيق الأحوال على الوقائع، وتوهم الصدق، والتقرب من أصحاب المراتب بالثناء والمدح وتحسين الأحوال في العمران، ويصنفها الدكتور عبد الغني مغربي إلى ثلاثة هي : – التصورات الجماعية للأمور، – نزاهة الباحث، مستوى المعرفة (أبو زيد، .، 68).

قواعد المنهج في علمه الجديد

يقول ابن خلدون في هذا الباب:" ولما طالعت كتب القوم، وسبرت أغوار الأمس واليوم، نهبت عين القريحة من سنة الغفلة والنوم، ...، فأنشأت في التاريخ كتابا، رفعت به عن أحوال الناشئة من الأجيال حجابا، وفصلته في الأخبار والاعتبار بابا بابا، وأبديت فيه لأولوية الدول والعمران عللا وأسبابا، وبنيته على أخبار الأمم الذين عمرو الغرب في هذه الأعصار، و ملئوا أكناف الضواحي منه والأمصار وما كان لهم من الدول الطوال أو القصار، ومن سلف لهم من الملوك والأنصار، وهما العرب والبربر، إذ هما الجيلان اللذان عرف بالمغرب مأواهما وطال فيه على الأحقاب مثواهما،...، فهذبت مناحيه تهذيبا، وقربته لأفهام العلماء والخاصة تقريبا، ...وشرحت فيه من أحوال العمران والتمدن، وما يعرض في الاجتماع الإنساني من العوارض الذاتية، ما يمتعك بعلل الكوائن وأسبابها، ويعرفك كيف دخل أهل الدول من أبوابها، حتى تنزع من التقليد يدك، وتقف على أحوال ما قبلك من الأيام والأجيال وما بعدك ورتبته على مقدمة وثلاثة كتب:

مقدمة: في فضل علم التاريخ، وتحقيق مذاهبه، والإلماع بمغالط المؤرخين.

و بدأ فيه بشرح قواعد المنهج التي أرسى عليها علم العمران الذي وضعه، وهكذا حوت المقدمة سبعة علوم رئيسية محدودة المعالم، واضحة المهمات في تسلسل دقيق وهي :علم البحث في التاريخ علم التبيؤ البشري(الإيكولوجيا)، الاجتماع البدوي والريفي، الاجتماع السياسي، الاجتماع الاقتصادي، اجتماع المعرفة(أبو زيد، – ، 68).

الكتاب الأول: في العمران وذكر ما يعرض فيه من العوارض الذاتية من الملك والسلطان والكسب والمعاش والصنائع والعلوم وما لذلك من العلل والأسباب.

الكتاب الثاني: في أخبار العرب وأجيالهم، ودولهم منذ مبدأ الخليقة إلى هذا العهد، وفيه والإلماع ببعض من عناصرهم من الأمم المشاهير ودولهم، مثل النبط والسريالين والفرس، وبني إسرائيل والقبط واليونان والروم والترك و الإفرنجة.

الكتاب الثالث: في أخبار البربر ومن إليهم من زناته، وذكر أوليتهم وأجيالهم، وما كان لهم بديار المغرب خاصة من الملك والدول"(المقدمة، 5-6).

بناء على ما ذكره ابن خلدون في التمهيد لكتابه، يتضح لنا شيء من طريقته في البحث، فهو أولا قد قام بقراءات كثيرة ومتنوعة، تمكن بواسطتها من معرفة الكثير من الوقائع والأحوال عن دول المغرب، التي ولد في إحداها وهي تونس، وعاش وتنقل في بعضها، وألف كتابه في التاريخ في دولة أخرى هي الجزائر، وبعد مضي فترة الإعداد، وهي فترة القراءة والبحث، بدأ الكتابة، وهذه هي الطريقة الصحيحة في التأليف السليم، فبالإضافة إلى جمع المادة الغزيرة، المؤلف لا يبدأ من فراغ.

ولعل ما يميز ابن خلدون هو حرصه على البحث عن العلل والأسباب وراء أحداث أدت إلى نشأة الدول وبداية العمران وظواهره، ذلك لأنه لم يكن يقنع بمجرد الكشف عما وقع، حدثا كان أو فعلا، ولا بمجرد كيفية وقوع ما وقع، بل كان مولعا بالبحث عن العلل الكامنة، والتفتيش عن الأسباب الخفية والظاهرة، وهاتان العمليتان تحتاجان إلى أن يكون الباحث مستوعبا لأكبر قسط من المعرفة وأن يكون قادرا على اختزانها والاحتفاظ بها، ثم

الإفصاح عنها مرتبة ومصنفة، بحيث يسهل على العقل أن يلمح العلاقات التي تربط الحقائق بعضها ببعض، سواء كان ذلك عن تشابه واتفاق أو تباين واختلاف(الساعاتي، 2006، 72-73).

وكان بحثه في العلل وتحريه الصدق في كل ما يسمع، وتنقيبه عن الحقيقة في كل ما يقرأ، وتوخيه الدقة في كل ما يشاهد بدقائقه وجزئياته، لم يكن صوريا كما ذهب إلى مثل هذا منطق أسلافه، الذين استصغروا من شأن الوقائع الجزئية المحسوسة، التي يعدونها من الأمور التي لا تؤدي إلى علم يقيني صحيح فالعالم في رأيهم هو الذي ينتج عن النظر في الأمور الكلية العامة، إذ هي أمور ثابتة لا تتغير.

ومما يجدر ذكره أن غالبية المفكرين المسلمين في عصورهم المتأخرة كانوا يبحرون في تفكيرهم على هذا المنوال، فكما يصفهم ابن خلدون فهم يبحثون في "صور" قد تجردت من مواردها. (الوردي،1994، 29).

وهنا تتجلى عبقرية ابن خلدون في أنه لم ينشىء علم الاجتماع الإنساني والعمران البشري فحسب، بل إنه قد وضع أيضا لهذا العلم قواعد منهج أصيلة(الساعاتي، 2006، 86).

قاعدة الشك والتمحيص

ورث ابن خلدون ميراثا من الشك العقلي خلفه له اثنان من كبار أئمة الفقه الإسلامي وهما أبو حامد الغزالي، وابن تيميه، فأما الغزالي فقد شك في قدرة العقل في إدراك الحق، وهو بذلك يختلف عن الفلاسفة والمناطقة القدامى الذين كانوا يثقون بالمنطق ثقة مطلقة ويؤمنون بصحة استعماله في جميع الحالات، ففي رأيه أن البرهان المنطقي قاصر عن أن يصل بالإنسان إلى اليقين في القضايا الإلهية والروحية، فهذه القضايا هي أعمق وأعظم من أن تدركها عقولنا المحدودة، فهي خارجة عن نطاق البرهان المنطقي والنظر العقلي. (الوردي، 1994، 54)، مثله في ذلك كحاكم الحس تماما.

وأما ابن تيمية فقد شكك في صحة الكليات العقلية العامة التي كان المناطقة يجعلونها مقدمات لأقيستهم المنطقية ويعتمدون عليها في براهينهم اعتمادا لا يجوز الجدال فيه، فهذه الكليات في نظر ابن تيمية ليست ضرورية ولا بديهية وليس لها وجود خارجي. إنها بالأحرى من الأمور النسبية التي يختلف الناس في تقديرها، فما هو بديهي منها عند بعض الناس قد يكون غير بديهي عند البعض الأخر. وابن تيمية يقول في هذا: "والناس يتفاوتون في قوى الأذهان أعظم من تفاوتهم في قوى الأبدان".

كما يرى ابن تيمية أن الكليات العقلية قد تكون بديهية أحيانا كما في العلوم الرياضية. فالكليات التي يعتمد عليها علم الهندسة مثلا هي بديهية اتفق الناس على اليقين بها في كل زمان ومكان. أما في العلوم الأخرى فهي ليست كذلك، كما في علم الطب مثلا. فالكليات هنا نشأت عن تجارب شخصية لأفراد من البشر ثم نقلت التجارب جيلا بعد جيل. وربما جاءت تجارب أخرى تنقضها(الوردي، 1994، 58).

فضلا عما ورثه ابن خلدون أيضا في علم الحديث من طرق التثبت من صحة ما يروى عنه، وهذا يفسر السبب في أن ابن خلدون لم يكن شكاكًا فحسب بل كان باحثًا مدققًا وناقدا محققًا. وقد استعان بشكه هذا في إثبات علمه الجديد فتراه يتقصى أسباب الكذب في الروايات ويشرحها ويحللها مثلما قام بتحقيقات سكانية (لما نقله المسعودي وكثير من المؤرخين في جيوش بني إسرائيل، الذين كانوا ستمائة ألف أو يزيدون، حيث يقول ابن

خلدون: "ليس بين سليمان وإسرائيل إلا أحد عشر أبا، ولا يتشعب النسل في أحد عشر من الولد إلى مثل هذا العدد الذي زعموه، اللهم إلا المئين والآلاف فربما يكون، وأما أن يتجاوز إلى ما بعدهما من عقود الأعداد فبعيد، وأعتبر ذلك في الحاضر المشاهد والقريب المعروف، تجد زعمهم باطلا ونقلهم كاذبا")، أو عسكرية (حيث يقول:"ثم إن مثل هذه الجيوش البالغة إلى مثل هذا العدد يبعد أن يقع بينها زحف أو قتال لضيق ساحة الأرض عنها، وبعدها إذا اصطفت عن مدى البصر مرتين أو ثلاثا أو أزيد، فكيف يقتتل هذان الفريقان ...")، أو جغرافية (حيث يقول :"وادي الرمل الذي يعجز السالك، فلم يسمع قط ذكره في المغرب على كثرة سالكيه ومن يقص طرقه من الركاب والقرى في كل عصر وكل جهة")، أو تحقيقات أسرية، جاء ذلك لكي يقرب علمه الجديد من أذهان العلماء والناس عامة ويجعله مستساغًا لمداركهم(الساعاتي، 2006، 91-95).

ويجمل ابن خلدون الأسباب المفضية للكذب في الخبر في عدة أمور منها :التشيعات للآراء والمذاهب، وتقرب الناس في الأكثر لأصحاب التجلية والمراتب بالثناء والمدح، فضلا عن الثقة بالناقلين، والذهول عن المقاصد، وولوع النفس بالغرائب، وسهولة التجاوز على اللسان وعدم محاسبة النفس على الخطأ إلى جانب التأس بالقوم فيما يأتونه من طاعة لذاتهم، والقياس والمحاكاة والجهل بتطبيق الأحوال على الوقائع لأجل ما بداخلها من التلبيس والتصنيع، هذا إلى جانب الجهل بطبائع الأحوال في العمران(أبو زيد، . ، 70).

ويذهب ابن خلدون أن الطريق الصحيح للتمييز بين الممكن والمستحيل من الأخبار هو مشاهدة الكائنات الخارجية والتعرف على وقائعها، بذلك يمكن الكشف عن خصائصها الذاتية .أما النظر في الأخبار التي تنتقل عن الكائنات الخارجية وفق صورها المطلقة التي يتوصل إليها عن طريق التجريد الذهني فلا يؤدي إلى رأي يقيني .ولاشك في أن نظرة ابن خلدون في العمران وأحواله ووقائعه من حيث المضمون المادي الذي يحتوي نسيج الحياة الاجتماعية المتشابك نظرة وضعية واضحة سبق بها" أوجست كونت "صاحب المذهب الوضعي بقرابة خمسة قرون، كما تذكرنا قاعدة الشك والتمحيص بطريقة الشك المنهجي عند" ديكارت."(الساعاتي، 2006، 104).

التشخيص المادي للظاهرة

وذلك من خلال الواقع الاجتماعي، فقد سبق بذلك فكرة الوضعية عند كونت(الأحكام في هذه المرحلة تشتق من طبيعة الوقائع التي يعيش فيها الكائن البشري)(التابعي، 2001، 153) فضلا عن فكرة الموضوعية عند دوركايم(مبدأه الأول: فلندرس الحقائق والوقائع الاجتماعية باعتبارها أشياء) (غدنز، 2005، 63).

وربما كان ارتباط التشخيص المادي بالموضوعية أشد وأقوى، ويقصد بالموضوعية في العلوم الاجتماعية قدرة الباحث على ملاحظة الظواهر الاجتماعية على ما هي عليه في الواقع.

ويقتضي عند ابن خلدون النظر إلى الحقائق الاجتماعية ومحاولة الكشف عما يعرض لها لذاتها ووفق طبيعتها، وهو يرى أن الإنسان يستطيع التدريب على ذلك، حتى يعتاد النظرة الواقعية إلى الحياة الاجتماعية(الساعاتي، 2006، 108).

ويضيف ابن خلدون فكرة التشخيص المادي، على أن علم العمران عبارة عن مجموعة من الحقائق، وأن لكل حقيقة من هذه الحقائق عوارض تلحق بها لذاتها أو لكونها حقيقة اجتماعية كالعصبية أو التقليد أو سكني البادية أو الحياة في الحاضرة وذلك على سبيل المثال لا الحصر، وتحدث لنا عن كيفية وراثة هذه الحقائق وذلك على أساس حسي رأى أنه أصدق من القياس المنطقي والتجريد العقلي لأنه يتصل بالوجود الاجتماعي كما هو واقع فضلا عن تعليل هذا الوجود.

فقد نميز فكر ابن خلدون المنهجي وفقًا لقاعدة التشخيص المادي بالسمات التالية:

1 -الواقعية في التفكير وربط الفكر بما هو مشاهد وملاحظ ماديًا.

2 -رفض كل الأفكار السابقة التي لا تتمشي مع هذا المنطق المادي.

3 -ضرب الأمثلة من واقع الحياة للتدليل على منطق فكره المادي.

4 -كان ابن خلدون موضوعيًا وضعيًا قبل غيره من المفكرين المحدثين(أبو زيد، . ، 71).

تحكيم أصول العادة وطبيعة العمران

يشير ابن خلدون في أكثر من موضع في مقدمته أن القواعد والأصول التي لا بد من رد الأخبار والروايات إليها، وكذلك كل المعطيات التي يستطيع الباحث الحصول عليها ليتبين له الحقيقي منها من الزائف .ويعني ابن خلدون بقاعدة أصول العادة :أن كل حادث من الحوادث ذاتًا كان أو فعلا لابد له من طبيعة تخصه في ذاته وفيما يعرض له من أحواله، فإذا كان السامع عارفًا بطبائع الحوادث والأحوال في الوجود ومقتضياتها أعانه ذلك في تمحيص الخبر على تمييز الصدق من الكذب .ويضع قانونًا في تمييز الحق من الباطل في الأخبار وذلك بالنظر في الاجتماع البشري الذي هو العمران وتمييز ما يلحقه من الأحوال لذاته وبمقتضي طبيعته(الساعاتي، 2006، 148).

ومن أبرز طبائع العمران في الحياة البدوية والحياة الحضرية ومن أظهر طبائع العمران ما تؤدي إلى الفساد والظلم الاجتماعي .وللعمران البشري طبيعة تجعل من الضروري أن يكون له سياسة ينتظم بها أمره، ومن طبيعة العمران اشتماله على نظام الطبقات .تلك هي أهم طبائع العمران البشري التي جعلها ابن خلدون أساسًا للتحليل الاجتماعي والتفسير وهو بذلك يفسر الظواهر الاجتماعية بظواهر اجتماعية أخري، وأن ما توصل إليه من قوانين اجتماعية قد استعارها من العلوم العقلية ثم طبقها على ظواهر العمران وبذلك يكون قد سبق أوجست كونت ودوركايم في هذا المضمار(أبو زيد، . ، 71).

القياس بالشاهد وبالغائب

استخدم ابن خلدون القياس قاعدة رابعة من قواعد منهجه للاستدلال على صحة آرائه الاجتماعية والبرهنة على قوانينه العمرانية التي كونت الدعائم الأساسية لعلمه الاجتماعي الذي استحدثه(الساعاتي، 2006، 173).

فهو لم يكن يستعين بالمنطق الأرسطي الصوري، ذلك أن هذا المنطق يهتم بصورة الشيء ويهمل مادته، ولأن أصحابه يحصرون تفكيرهم المنطقي في صورة الأشياء فقط، فصاروا يحلقون في عالم التجريد الفكري الذي هو بعيد كل البعد عن مجريات الحياة الواقعية، حتى استصغروا شأن الوقائع الجزئية والمحسوسة(الوردي،1994، 29).

وكان يستعين في بسط حججه الاجتماعية وإقامة براهينه للقوانين التي إستقرأها بالنظر في العمران البشري والاجتماع الإنساني، وكان يحتفظ لنفسه بخطة منهجية انفرد بها أقامها على قواعد واضحة أحدهما القياس بالتمثيل أي القياس بالغائب على الشاهد ذلك الغائب الذي تتكون منه الوقائع التاريخية التي حدثت في الماضي(الساعاتي، 2006، 173).

خاتمة

ما عسى للسان أن يقول فوق ما قال عنه لسان الدين الخطيب واصفا شخصية هذا العلامة الفذ بقوله: "فهو رجل فاضل، حسن الخلق، جم الفضائل، باهر الخصل، رفيع القدر ظاهر الحياء، أصيل المجد، وقور المجلس، خاصّي الزّي، عالي الهمة، عزوف عن الضيم، صعب المقادة، قوي الجأش، طامح لقنن الرئاسة، خاطب للحظ، متقدم في فنون عقلية ونقلية، متعدد المزايا سديد البحث، كثير الحفظ صحيح التصور، بارع الخط، مغري بالتجلة، جواد الكف، حسن العشرة، مبذول المشاركة، عاكف على رعي خصال الأصالة، مفخر من مفاخر التخوم المغربية"(بدوي، 1962، 254).

المراجع:

1- أبو زيد أحمد، دراسات مصرية في علم الاجتماع، مركز البحوث العربية والإفريقية، بدون بلد النشر، بدون تاريخ.
2- ابن خلدون عبد الرحمن، مقدمة ابن خلدون، دار الفكر ، بيروت، 2001.
3- ابن خلدون عبد الرحمن، تاريخ ابن خلدون، ج7، دار الفكر، بيروت، 2000.
4- الساعاتي حسن، علم الاجتماع الخلدوني قواعد المنهج، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2006.
5- الوردي، علي، منطق ابن خلدون، دار كوفان، لندن، ط2، 1994.
6- بدوي عبد الرحمن، مؤلفات ابن خلدون، المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، القاهرة، 1962.
7- طه حسين(مترجم) ، فلسفة ابن خلدون الاجتماعية تحليل ونقد، مطبعة الاعتماد، مصر، ط1، 1925.
8- عبد الغني مغربي، الفكر السوسيولوجي عند ابن خلدون، الجزائر، 2006.
9- غيدنز أنتوني (مترجم)، مقدمة نقدية في علم الاجتماع، بدون بلد النشر، 2005.